الفصل الرابع

عصر الفترة الأولى
الأسرات من السابعة حتى العاشرة
(٢٢٨٠ – ٢٠٥٢ ق.م.)

- الأسرة السابعة (٢٢٨٠ ق.م – لمدة سبعين يومياً حسب رواية مانيتون)
- الأسرة الثامنة (٢٢٨٠ – ٢٢٤٢ ق.م.)
- الأسرة التاسعة (٢٢٤٢ – ٢١٣٣ ق.م.)
- الأسرة العاشرة (٢١٣٣ – ٢٠٥٢ ق.م.)

obeikandl.com

عصـــر الفتـــــرة الأولـــى

الأسرات من السابعة حتى العاشرة

(٢٢٨٠ - ٢٠٥٢ ق.م.)

صورت بردية « إيبو - ور » حالة مصر فى آخر أيام الأسرة السادسة خير تمثيل . فقد انهارت السلطة المركزية فى البلاد وأصبحت حدودها مفتوحة ، وما لبثت أن وفدت جماعات كبيرة من البدو المقيمين على الحدود وبخاصة من الشرق وأخذوا ينهبون الناس ويذيعون الذعر فى النفوس . وبدلا من أن يقف رجال الأمن فى وجه العابثين أصبحوا هم الآخرين ينهبون ويقتلون ، فلا عجب إذا قامت ثورة جارفة حطمت كل شىء ولم يسلم منها مدفن أو معبد أو ديوان حكومى ، وامتد غضب الشعب إلى الأثرياء فنهبوا بيوتهم وقتلوا من قتلوا وشردوا من شردوا وأصبحت الخادمات يجلسن فى أماكن سيداتهن وأصبح السوقة والدهماء هم أهل الحل والعقد .

فإذا ما سألنا أنفسنا عن مصير البيت المالك فإننا لا نلبث أن نقف على الجواب مما خلفه لنا مانيتون من أخبار ، وما أبقى عليه الزمن من أسماء مدونة فى بردية تورين وفى ثبت أسماء الملوك بأبيدوس وثبت سقارة وغيرها .

يذكر مانيتون أنه بعد سقوط الأسرة السادسة قامت الأسرة السابعة ، وحكم سبعون من ملوكها مدة سبعين يوما ، ومهما حاولنا تفسير ذلك لا يمكننا أن نجد ما نستطيع أن نسميه جوابا مقنعا ، وأقرب شىء إلى العقل هو أنه ربما اجتمع سبعون من كبار الموظفين وحكام الأقاليم وكونوا من أنفسهم هيئة حاكمة يطلق على كل واحد من أولئك السبعين لقب ملك أو حاكم ، ولكن هذا النظام - أو بعبارة أخرى هذا النوع من الحكم الذى لم يعتد عليه المصريون - لم يجد قبولا منهم فلم يستمر أكثر من سبعين يوما ، وعلى أى حال فإن أكثر المؤرخين الآن يميلون إلى القول بأن أيام هذه الأسرة انتهت فى العام نفسه أى أن عام ٢٢٨٠ ق.م. هو آخر حكم الدولة القديمة (١) هو فى

الوقت ذاته بداية الأسرة السابعة المنفية وعصر الفترة الأولى وأول سنى الأسرة الثامنة التى حكمت ٣٨ عاما فقط .

ولكن الأستاذ شتوك الذى كتب رسالة خاصة عن هذا العصر يرى أن عددا من الملوك قد تولوا الحكم فى الأسرة السابعة فى منف ويقدم ثبتا بأسمائهم . ولكن فى الوقت ذاته ، ومنذ عهد الملك الثالث منهم ، بدأت عائلة مالكـــة جديدة فى الصعيـد (فى قفط أو فى أبيدوس) وهى الأسرة الثامنة ومؤسسها « نتر – كا – رع » وبدأت أيضا عائلة مالكة أخرى فى اهناسيا وهى الأسرة التاسعة ومؤسسها أختوى (أوخيتى) الأول (١) . ولكن الرأى الأرجح الذى يجد قبولا من الغالبية الكبرى من الباحثين هو أن الأسرة السابعة لم يزد حكمها فى منف عن عدة شهور ثم تلتها فى منف أسرة حاكمة جديدة من أحد فروع البيت المالك القديم حكموا أيضا فى منف وكان عدد ملوكها خمسة عشر ملكا وأنهم لم يحكموا فى قفط (٢) أو فى أبيدوس كما قال بعض الباحثين .

أما الأسماء التى ذكرها بترى وذكرها شتوك فإنها – أو العدد الأكبر منها – أسماء لملوك حكموا فى عصور تالية ، ولم يخلفوا وراءهم آثاراً إلا جعارين فى أكثر الحالات كتبت عليها أسماؤهم .

كانت البلاد مفككة العرى ، وكان الوجه البحرى بصفة خاصة تحت رحمة عصابات البدو التى أذاعت بين أهله الذعر والخوف ، والتى لم تجد من يقف فى وجهها . أما فى مصر الوسطى والصعيد فقد كانت الحالة أفضل نسبيا إذا استقل حاكم كل منطقة بها وفرض عليها سلطانه ، وفى مثل تلك الظروف يحاول كل حاكم قوى أن يضم إليه أملاك غيره من جيرانه ويخضعهم له فيظل الناس فى كرب مستمر بسبب الغارات التى يتعرضون لها وبسبب ما ينجم عن الحروب من قتل وتخريب ونهب أموال وشل للحياةالعامة . وفى غمرة هذه الحوادث أراد حاكم منف ، وربما كان من نسل ملوك الأسرة السادسة أن يعيد للبلاد وحدتها فأعلن نفسه ملكا على البلاد

وساعده فى ذلك بعض حكام الصعيد وامتنع البعض الآخر . ومن المحتمل أيضا أن يكون بعض هؤلاء الحكام قد رأى أنه لم يكن أقل من ملوك منف فادعى الملك لنفسه أيضا ، وفى خلال هذا الضباب الكثيف يمكننا أن نرى بعض صور غير واضحة المعالم تماما . فإن ملوك الأسرة الثامنة كانوا يحكمـــون فى منف على الأرجح كما قلنا ، ولكنهم كانوا يعتمدون على مناصرة بعض البيوت القوية فى الأقاليم فكانوا يصاهرونهم ويمنحونهم بعض الامتيازات وقد حفظت لنا الأيام فى خرائب معبد الإله « مين » فى قفط بضعة مراسيم منحها آخر ثلاثة من ملوك الأسرة الثامنة لأعضاء هذا البيت فاعتزوا بها ووضعوا صورها منقوشة على لوحات حجرية فى المعبد ، وأكثر هذه المراسيم لمصلحة إثنين من هذا البيت وهما « شماى » الذى كان أميراً لذلك الإقليم وإبنه « إيدى » (١) .

وتوجد أجزاء من عدد منها فى متحف المتربوليتان بنيويورك واحد منها باسم (واج كارع) (خع باور) وأربعة من أيام (نترى باور) (نفر كارع) الذى خلفه على العرش وقد أصدر هذه المراسيم الأربعة فى يوم واحد ، وذلك فى العام الأول من توليه الملك . أصدر هذا الملك أول تلك المراسيم لتحديد الألقاب التى تمنح لابنته الكبرى « نبيت » زوجة الوزير « شماى » ويعين ضابطا خاصا ليكون رئيسا لحراسها وفى المرسوم نفسه بأمر الملك بناء سفينة مقدسة للإله « مين » ويحدد أطوالها وفى مرسوم آخر يأمر الملك بتعيين « إيدى » خليفة لأبيه كحاكم للصعيد وأن يكون له الإشراف على الأقاليم السبعة الجنوبية ابتداء من النوبة إلى مدينة « هو » (على مقربة من نجع حمادى) . ولكن نفوذ الأسرة الثامنة لم يطل (٢) ، ولا نلبث أن نرى بيتا

حاكماً جديداً يتولى الملك ويجعل عاصمة ملكه فى مدينة اهناسيا (نن – نى – سوت، قديما) عند مدخل الفيوم ، وهى إحدى المدن القديمة ذات الأهمية الدينية التى عرفها الناس فى عصر اليونان باسم هراقليوبوليس ؛ لأنهم ساووا بين إلههـا ، حرى شف ، ومعبودهم البطل هرقل .

ملوك اهناسيا (الأسرتان – التاسعة والعاشرة)

ولسنا نعرف شيئا عن النزاع الذى يرجح أنه قام بين أمراء اهناسيا وآخر ملوك الأسرة الثامنة فى منف ، ولسنا نعرف شيئا عن موقف حكام الأقاليم من الأسرة الجديدة عند نشأتها ، ولكن يمكن القول بأن الأوضاع العامة لم تختلف كثيراً عن ذى قبل واستمر الملوك الجدد يخطبون ود الحكام الأقوياء ويستعينون بهم . ونعرف من بردية تورين أن عدد ملوك هذه الأسرة ثلاثة عشر ، فقدت أسماء الكثيرين منهم بسبب تحطيم هذه البردية ، وأنهم حكموا من ٢٢٦٢ – ٢١٢٣ أى ١٠٩ سنوات .

ومؤسس هذه الأسرة (مرى إب رع) (أختوى) وهو أختوى الأول ، (ويذكر فى بعض المؤلفات باسم « خيتى ») الذى وصفه مانيتون بأنه كان ظالما متجبرا ، لاقى الشعب على يديه كل أنواع العنف والشدة أكثر مما أصابهم على يدى أى ملك قبله ، وأنه ظل فى ظلمه وطغيانه حتى أصيب فى أواخر أيامه بالجنون وانتهت حياته عندما فتك به أحد التماسيح .

وربما كان مانيتون صادقا فيما رواه عن قسوة أختوى وطغيانه ، فإننا لا نتوقع من أمثال هذا الشخص من الطامحين المحاربين فى عصر كانت تسوده الفوضى والأطماع ، والبلد يتقاسمها الحكام ، ويتحكم البدو فى الدلتا ويتنافس حكام الصعيد فيما بينهم على النفوذ ، لا نتوقع من ملك قوى جديد يريد أن يؤسس ملكا جديداً ، وله منافسون وحوله حاقدون وناقمون عليه ، ألا يقضى على كل من يقف فى طريقه دون رحمة وهوادة .

ولسنا نعرف الكثير عن هذا الملك ، ولسنا نعرف أيضا من هم حكام الأقاليم الذين وقفوا إلى جانبه ، أو مدى نجاحه فى إعادة النظام إلى الدلتا رغم كل حروبه وكل قسوته ، ولكنا نشك فى أن الحالة تغيرت كثيراً إذ ظل الحكام الأقاليم نفوذهم كما كانت الحالة فى الأسرة الثامنة ، وظلت الدلتا معرضة لما كان ينتابها من غزوات البدو المتكررة . ووجدت الأسرة التاسعة نفسها فى حاجة إلى مؤازرة بعض حكام الأقاليم الذين يحكمون بلادهم شبه مستقلين ، والذين ظلوا يشيدون مقابرهم على مقربة من مدنهم ، ويدفع الجزية من يدفعها إلى ملوك اهناسيا رمزا لولائهم ، ولكنهم

لم يعتمدوا إلا على أنفسهم لحماية أقاليمهم وحماية أنفسهم وجمع الضرائب من أتباعهم .

وفى نسخة يوسيبيوس عن مانيتون نقرأ أن عدد ملوك الأسرة العاشرة تسعة عشرة حكموا ١٨٥ سنة وينص على أن كلا من الأسرتين حكم فى أهناسيا ولكن الأبحاث الحديثة تثبت لنا أن عدد ملوك الأسرة التاسعة كان أكثر من أربعة حسب ما ورد فى بردية تورين وربما بلغ عددهم ثلاثة عشر شخصا حكموا ١٠٩ أعوام ولكن الأسماء الكاملة من بينها عددها خمسة فقط (١) . أما ملوك الأسرة العاشرة فقد كانوا خمسة فقط حكموا من ٢١٢٣ – ٢٠٥٢ ق.م. أى ٧١ عاما (٢) وأن هذه الأسرة الإهناسية كانت معاصرة منذ ظهورها تقريبا لأمراء طيبة الذين دارت بينهم وبين الإهناسيين فيما بعد حروب انتهت بالقضاء على بيت إهناسيا وانفراد الأسرة الحادية عشرة الطيبية بالملك .

والحقيقة أننا لا نكاد نعرف شيئا عن ملوك الأسرة التاسعة حتى الآن وكانت مصر فى أيامهم شبيهة بما كانت عليه فى عهد الأسرة الثامنة أى ملوك ضعاف يعيشون فى العاصمة لا يكاد أن يكون لهم نفوذ فى الأقاليم ، وأمراء أو حكام للأقاليم يستقل كل منهم بشأنه وتربط بعضهم بالبيت المالك فى إهناسيا رابطة من الروابط والبعض الآخر مستقل بشأنه ، أما البلاد بوجه عام فقد تفككت عراها وتأخرت فنونها وأصابها الوهن .

وكان البيت المالك يزداد ضعفا بينما يزداد أمراء الأقاليم قوة حتى جاء اليوم الذى زال فيه حكم الأسرة ، وتلتها أسرة أخرى أظهرت شيئا من النشاط ، وبدأ الظلام المخيم على تاريخ مصر ينقشع رويدا فنرى خلاله بعض أشباح تتحرك ثم نرى هذه الأشباح تتحول إلى قوى تتطاحن فيما بينها ، وتدخل مصر مرة أخرى فى فترة استيقاظ .

ومنذ الوقت الذى جلس فيه ملوك الأسرة على العرش ظهر فى طيبة بيت قوى كان أفراده يرون فى أنفسهم أنهم أحق بالملك من بيت إهناسيا ولكن ولاء بعض البيوت القوية الأخرى لملوك إهناسيا وبخاصة أمراء أسيوط فى مصر الوسطى أى فى شمالهم وبيت آخر بأرمنت إلى الجنوب منهم جعل مهمة أمراء طيبة مهمة غير يسيرة كما سنرى .

فعلى جدران مقبرة المعلا [1] (بين الأقصر وأسنا) نقرأ بعض الحوادث التى جرت فى تلك الأيام . كان (عنخ تيفى) صاحب هذه المقبرة حاكما للأقاليم الجنوبية الثلاثة أى إلفنتين وإدفو وأرمنت ، أى يمتد نفوذه من النوبة حتى حدود الإقليم الرابع وهو إقليم طيبة . يفتخر ، عنخ – تيفى ، بسطوته وقوة جنوده الذين كانوا يذيعون الذعر إذا خرجوا للحرب ، ويتحدث عن المجاعة التى فتكت بالصعيد ولم ينج منها غير إقليمه لأنه ساعد الناس ، وكان يوزع عليهم الحبوب ، وحمى الضعفاء من الأقوياء حتى مرت تلك المحنة بسلام . ونحن لا يخالجنا شك فى أنه حدثت حرب بينه وبين أمير إقليم طيبة الذى اتحد مع من كانوا إلى الشمال منه وبخاصة بيت قفط وربما بيت دندرة أيضا ، ولكن نتيجة تلك الحرب لم تغير من الأمراء شيئا إذ ظل ، عنخ – تيفى ، حاكما على أقاليمه الثلاثة مواليا لبيت إهناسيا .

عاش ، عنخ ، – تيفى ، فى أوائل أيام الأسرة العاشرة فى عهد الملك ، نفر كارع ، ثانى ملوك هذه الأسرة الذى ورد اسمه فى المقبرة ولكن قوة هذه العائلة لم تستمر طويلا ، ولسنا نعرف إن كان ذلك بسبب ازدياد قوة طيبة أو ضعف الذى خلف ذلك الرجل القوى فى حكم الجنوب ، وربما كان الإثنان معاً .

وجلس على عرش إهناسيا بعد ، نفر كارع ، ملك حازم وهـو (واج كارع) (أختوى) الشهير الذى خلف وصيته لابنه ، تلك الوصية التى تلقى ضوءا كبيرا على ذلك العصر ، وهو المعروف الآن باسم أختوى الرابع لأننا نعرف الآن أن ثلاثة ملوك يحملون هذا الاسم كانوا من بين ملوك الأسرة التاسعة حسب دراسة الترتيب الأخير لبردية تورين منذ سنوات قريبة .

بدأ هذا الملك فى تطهير الدلتا من الفوضى السائدة فيها بسبب وجود عصابات البدو التى كانت تنشر الفزع وتنهب الناس . وبعد أن أستتب له الأمر بعض الشيء أراد أن يتخلص من أمراء طيبة وحلفائهم فى الجنوب فحدثت حرب بين الفريقين دارت رحاها فى إقليم ثينيس (ثنى) على مقربة من أبيدوس ، انتصر فيها الإهناسيون بمعاونة أمراء أسيوط ولكن الطيبين عادوا فاسترجعوا ما فقدوه تحت قيادة (واح عنخ – إنيوتف) الذى لم يكتف باستعادة حصن ثينيس بل تقدم شمالا حتى استولى على مدينة كوم اشقاو (أفرود يتوبوليس) فى الإقليم العاشر من أقاليم الصعيد أى إلى حدود إقليم أسيوط نفسه .

وفى عهد الملك الإهناسى ، مريكارع ، ابن أختوى الرابع زادت المتاعب إذ تولى حكم طيبة حاكم قوى وهو منتوحوتب الثانى الذى أستأنف الحرب وقضى على أمراء أسيوط ، ثم اندفع نحو الشمال فاستولى على الأشمونين ، ولم يبق للأهناسيين إلا القليل من مصر الوسطى ونفوذ متزعزع فى الدلتا .

ومات مريكارع وخلفه على العرش أختوى آخر وهو الخامس الذى جرت فى عهده حوادث قصة القروى الفصيح ، ولكن هذا الملك لم يبق طويلا على العرش إذ عاودت جيوش طيبة هجومها فقضت على عائلة إهناسيا وأخضعت مصر كلها وبدأت الأسرة الحادية عشرة عهدا جديدا ، وعادت مصر إلى وحدتها القديمة يحكمها ملك واحد كما بدأت أيضا الدولة الوسطى . تلك هى الخطوط الرئيسية لتاريخ ذلك العصر المظلم ولكن يجب علينا قبل الانتقال إلى عصر آخر أن نتحدث بشيء من التفصيل عن ثلاث نقاط وهى :

١ – وصية أختوى الرابع لابنه مريكارع .

٢ – بردية القروى الفصيح .

٣ – آثار ذلك العصر .

أما ما نعرفه عن الصراع بين إهناسيا وطيبة فسنعود له بشيء من التفصيل عند مناقشة موضوع نشأة الأسرة الحادية عشرة فى الفصل القادم .

وصية الملك أختوى لابنه مريكارع :

من أهم المصادر القديمة لدراسة الحالة فى مصر فى أواخر أيام إهناسيا ، تلك البردية التى تحتوى على النصائح والتوجيهات التى وجهها الملك أختوى الرابع

(خيتى) إلى ابنه الملك مريكارع [1] ، إذ أننا نرى فيها كثيراً من المعلومات المهمة عن ذلك العصر الغامض يحاول أختوى أن يعطى خلاصة تجاربه لابنه حتى لا يقع فيما وقع فيه هو من أخطاء ، ويبدأ هذه النصائح بعد الديباجة التى فقدت الآن بتحذير ابنه من أى تابع له يكثر من الكلام ووراءه أتباع كثيرون فإن هذا الشخص يسبب الانقسام بين الناس ، وينصحه بقوله : « اطرده اقتله ، امح ذكراه (هو) وأتباعه الذين يحبونه » . ويوصى ابنه بعد ذلك بأن يكون فنانا فى الحديث ؛ لأن « اللسان كالسيف للإنسان » ، وينصحه بأن ينهج سبيل آبائه وأجداده وأن يكثر من قراءة ما خلفوه من كتب الحكمة وألا يفعل الشر وأن يتحلى بالصبر ويترك وراءه ذكرى حسنة من حب الناس له . ويحذر أختوى ابنه من الطمع ونصحه بأن يعتنى بتثبيت حدوده ، وأن يعلى من شأن رجاله ويقويهم ؛ لأن الغنى فى غير حاجة لمحاباة غيره ، أما الفقير فإنه لا يقول الحق الذى يؤمن به وإنما يحابى من يملك شيئا يعطيه له ، يقول لابنه : « ما أعظم الشخص العظيم عندما يكون رجاله المقربون عظماء ، وما أشجع الملك الذى يكون له رجال بلاط ، وما أعظم وأقوى الذى يكون له نبلاء كثيرون » ويكثر من نصح ابنه لاتباع جادة الحق وإقامة العدل ويحذره من ظلم الأرملة ، ويوصيه بألا يحرم شخصا من ثروة أبيه وألا يطرد الموظفين من وظائفهم ، ولكنه فى الوقت ذاته يوصيه وصية حازمة بقوله « حاذر من أن تعاقب الناس دون خطأ جنوه ، لا تقتل فإن ذلك لا يجديك شيئا ولكن عاقب بالضرب والإعتقال فتصلح الأمور فى البلاد ، اللهم إلا الثائر عليك الذى تنثبت من أمره » .

ولأول مرة فى تاريخ مصر نقرأ فى تلك النصائح عن وجود محكمة بعد الموت يقف أمامها الإنسان صاغرا ولا ينفعه أمام قضائها إلا العمل الصالح ، فإن أعماله توضع مكدسة إلى جواره » . ويشير أختوى إلى الشباب فينصح أبنه بالعناية بهم

وتقريبهم منه ، وأن يمنحهم الحقول ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية ولكنه يحذره بشدة من أن يميز ابن شخص غنى على ابن شخص فقير ، بل يجب أن يقدر كل إنسان حسب كفاءته الشخصية .

ويوصيه بالإكثار من إقامة المنشآت الدينية وترتيب القرابين ، وأن يرضى الله فإن الله يعرف الذين يعملون من أجله ، ثم يتدرج بعد ذلك إلى ذكر ما كان حادثا فى مصر من انقسام فيقول لابنه إنه لا يخلو أحد من وجود أعداء له ، وإن الأعداء فى داخل مصر لا يهدأون ، ثم يشفع ذلك بقوله ، إن القدماء قد تنبأوا بأن جيلا سيظلم جيلا آخر وأن مصر ستحارب حتى فى الجبانة وتهدم القبور . لقد فعلت ذلك وأصابنى ما يصيب من يعصى أمر الله » .

يشير أختوى بذلك دون ريب إلى حرب استعرت نارها بين الشمال والجنوب ، إذ ينصحه مباشرة بعد ذلك بأن يحسن علاقته بالجنوب وإذا لم تأت منهم جزية من الحبوب فيكفيه صداقتهم له وينصحه بأن يكتفى بما لديه من خبز وجعة .

ويقول لإبنه إن الجرانيت يمكن الحصول عليه دون عائق ، ويحذره من الاعتداء على آثار الآخرين وأنه يجب عليه الحصول على ما يلزمه من أحجار من محاجر طرة لبناء قبره ، وألا يأخذ أحجارا مما تخرب من قبور الناس .

كانت أيام أختوى مليئة بالحروب ، فلم يحاول الاصطدام ببيت طيبة فى الجنوب بل نشط نشاطا كبيرا فى الدلتا واهتم اهتماما خاصا بالجزء الغربى منها وأخضعه تماما لأهناسيا ، ولكن الأمر لم يكن سهلا فى شرقى الدلتا وإن كانت ضرائبها ظلت تأتى إلى القصر ، ويقول إنه أعاد تنظيم المنطقة من المنيا جنوبا حتى السويس وأنه أسكن فيها أناسا كثيرين انتقاهم من جميع أنحاء البلاد حتى يستطيعوا الدفاع عنها . لقد كان العدو الذى يخشاه ملوك أهناسيا وأقاموا الحاميات وشجعوا تعمير البلاد الواقعة على الحدود لصدهم عصابات الأسيويين حملة القوس ، الذين يلاقون الكثير من المتاعب فى بلدهم ، بسبب الماء والأشجار والجبال ، ويقول عن الأسيوى ، إنه لا يستقر فى مكان واحد ولكن ساقيه صنعتا لكى يتجول ويسير بعيدا . إنه يحارب منذ أيام حورس ، أى منذ الأزل ، وهو لا يقهر ولا يقهر ، إنه لا يحدد يوما للقتال ، إنه كاللص الذى يعمل فى عصابة ، وهذه إشارة دون شك إلى عصابات من البدو جاءت من الشرق وكانت تنتهز الفرص لنهب القوى الآمنة أو نهب المسافرين ، ثم تسارع بالهرب قبل أن يلحق بها المطاردون ، ربما أمكنه أن ينهب شخصا (يسير) بمفرده ، ولكنه لا يهاجم مدينة فيها سكان كثيرون » . وينبه ابنه مريكارع إلى أهمية منطقة

البحيرات المرة لحماية مصر من خطر البدو وينصحه بتحصين جزء منها وغمر الجزء الآخر بالمياه ويذكر ما قام به من تحصينات وعدد الذين جعلهم يقيمون هناك وكلهم مسلحون اللهم إلا الكهنة الذين يقيمون معهم . ويشير أيضا إلى تحصينه لمنف وإلى إنشاء قناة (أو ربما جسر) تربط بينها وبين إهناسيا ، ويعيد الكرة فيحذر ابنه من محاربة الجنوب ويقول له بأن ذلك يعطى فرصة للبدو الأسيويين فيعيثون فسادا فى الدلتا . ويعود فيذكر ما جره عليه اصطدامه بالجنوب « انظر ! لقد حدثت نكبة فى عهدى . لقد تحطمت مناطق إقليم ثنى . حدث ذلك حقا بسبب ما فعلت ، ولكنى لم أعلم به إلا بعد حدوثه . أنظر ! لقد جوزيت على ما اقترفت » ويختم نصائحه بحث ابنه على طاعة الله والخوف منه فهو يعلم السر وما يخفى ، ويذكره بألا ينسى آخرته وأن يعمل لليوم الآخر ، ويقول له بأن يذكر دائما نعم الله عليه ويقول عنه : « إنه هو الذى خلق أنفاس الحياة لخياشيمهم (أى الناس) ، وأولئك الذين خرجوا من صلبه ليسوا إلا صورا له . إنه يشرق فى السماء ليلبى رغبتهم ، إنه خلق لهم النباتات والحيوانات والطيور والأسماك ليقتاتوا منها » وما أجمل قوله : « إن الله يقبل أخلاق الرجل المستقيم الضمير أكثر من قبوله للثور الذى يقدمه الشرير (كقربان للآلهة) » وما أصدق عبارته التى يشير فيها إلى أن الله يوقع عقابه على بعض الناس لمصلحتهم : « إنه (أى الله) يقضى على من يملأ الشر قلبه بينهم (أى الناس) كما يضرب الأب ابنه إكراما لأخيه ، لأن الله يعرف كل إنسان » .

تلك هى بردية النصائح التى كتبها أختوى الرابع لإبنه وهى لا تمدنا فقط بتلك المعلومات الهامة عن الحالة الداخلية فى البلاد بل تمدنا بما هو أهم من ذلك ، وهو ظهور تلك النغمة الجديدة من التواضع . فلم يعد الملك ذلك الإله المترفع الجبار الحاكم فوق البشر والذى يرجو جميع الناس تعطفه ورضاه ليصيبهم شىء من إحسانه فى الدنيا والآخرة ، بل أصبح شخصا يتحدث عن ضعفه ويردد عبارات تدمه كسائر البشر . ونقرأ فى البردية أمرا آخر تزداد أهميته لأن قائله ملك يعترف له شعبه – ولو نظريا – بالألوهية الملكية ، وهو أن سعادة الإنسان فى آخرته تتوقف على عمله فى الدنيا ولا تتوقف على رضاء الملك فقط ، ونقرأ فيها أيضا أن كل امرىء مهما كان مركزه سيحاسب على أعماله أمام محكمة الآلهة وأنه سيجد تلك الأعمال مكدسة إلى جانبه بما فيها من خير وشر ، ونقرأ فيها أيضا نغمة حلوة وهى أن السعادة فى الآخرة لم تعد تتوقف على قبر يبنى أو على قرابين تقدم بانتظام ولكن الله يعرف ما فى القلوب ويطلب من عباده أن تحسن نياتهم ويذرون وراءهم الطمع والشر ، لأن النيات الحسنة هى التى يقبلها ، وهى أقرب إلى قلبه من القرابين التى يقدمها المذنبون

لقد فتكت الثورة الإجتماعية بمصر فدكت عرشها وفككت عراها وقضت على الحكومة المركزية فيها وعرضت البلاد لخطر الغزو الأجنبى ، ولكن مصر خرجت من محنتها بعد أن تعلمت من تلك التجربة القاسية أشياء جديدة عن قيمة الإنسان وحقوقه وعن معنى الخلق الكريم . لقد أثمرت تلك الثورة الإجتماعية إذاً ، وغيرت الشىء الكثير من نظرة المصريين إلى حكامهم بوجه عام وجعلتهم يدركون ما للفرد من قيمة وما له من حقوق ، ويكفى الآن هذا القدر من الحديث فسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى ١ـ عند مناقشتنا لبردية القروى الفصيح وبعض النصب التذكارية التى وصلت إلينا من ذلك العصر .

بردية القروى الفصيح (١) :

ازدهر الأدب ازدهارا كبيرا فى عهد ملوك إهناسيا ، وقد أشرنا قبل الآن إلى بردية « إيبرور » التى صورت لنا حالة البلاد وما ساد فيها فى بداية ذلك العصر المظلم الذى تلا سقوط الدولة القديمة وحللنا بردية النصائح الموجهة إلى مريكارع ورأينا فيها لغة مزدهرة وأدبا رفيعا يحوى آراء ناضجة وأهدافا محددة ، ولكن هناك قطعا أدبية أخرى ممتازة تساعدنا أيضا فى الوقوف على بعض نواحى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر ومن بينها بردية البائس من الحياة ولكنى سأقتصر على واحدة منها فقط وهى بردية القروى الفصيح لأهميتها .

ليست هذه البردية قصة حقيقية وإنما هى قطعة أدبية ذات هدف خلقى أحسن فيها كاتبها اختيار تعبيراتها وصيغها ، وأظهر فيها مقدرته فى اللغة . تتكون من مقدمة على صورة قصة لا تخلو من الظرافة وتسع شكاوٍ فى موضوع واحد وهو الحث على العدل وإعطاء الفقير حقه وحمايته من الغنى الطامع وأن يكون الحاكم سياجا وملجأ للمظلوم ويخشى من عقاب الله إذا انحرف عن الطريق السوى .

كان يعيش أحد القرويين واسمه « خر إن أنوب » فى وادى النطرون وأراد أن يذهب ببعض محاصيل تلك الواحة ليبيعها فى إهناسيا ثم يشترى بثمنها غلالا يعود

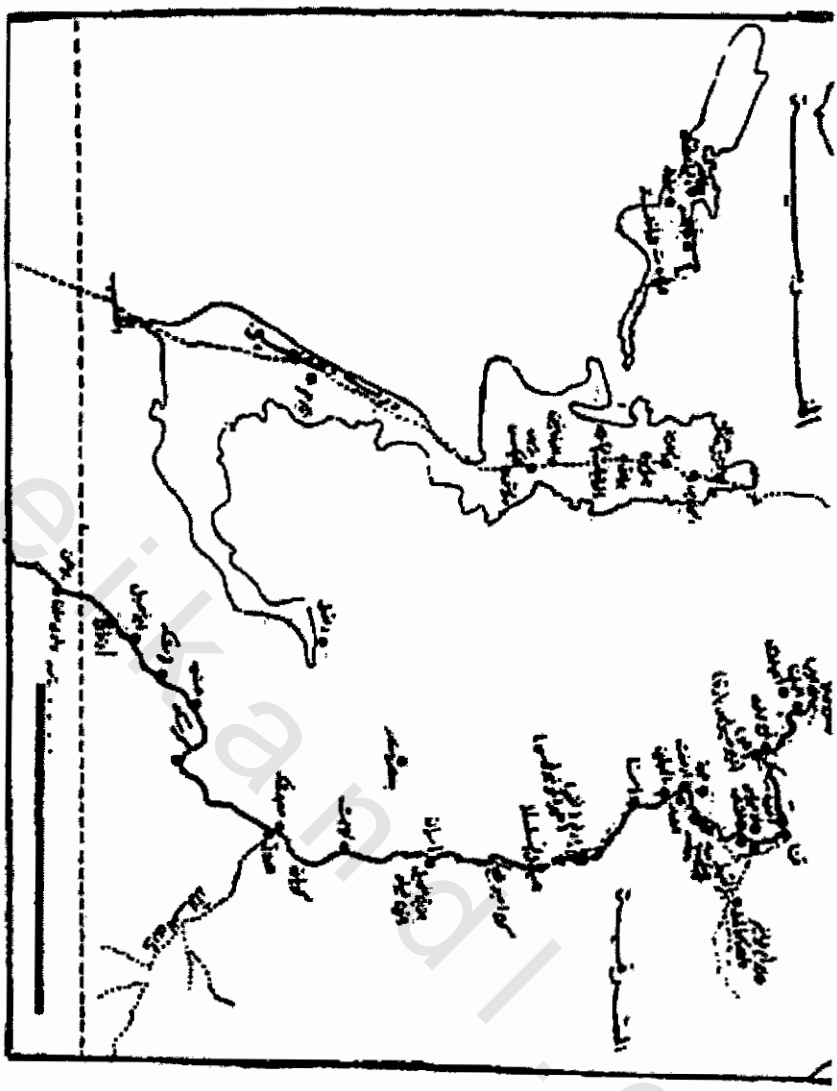

أهم المواقع الأثرية في مصر

بها إلى أهله . وطلب من أسرته أن تعد له زاد الطريق ، وحمل حميره ، وسار فى طريقه حتى أصبح على مقربة من العاصمة وكانت فى بلدة إهناسيا . وأثناء سيره رآه من بعيد شخص يسمى « تحوتى نخت » من أتباع « رنسى » بن « مرو » الذى كان رئيس مديرى القصر الملكى ومن كبار موظفى البلاد ، ومن أقرب الناس إلى الملك الحاكم . فلما رأى « تحوتى نخت » ذلك القروى آتيا فى الطريق عزم على اغتصاب ما معه ، وكان بيته قريبا من جانب الطريق الضيق وكانت الحقول على أحد جانبى الطريق ، وعلى الجانب الآخر ترعة فيها ماء . وأمر « تحوتى نخت » أحد خدمه فأحضر له قطعة من القماش فرشها فوق الطريق فوصل أحد طرفيها إلى الشعير المزروع فى الحقل بينما تدلى الطرف الآخر فى مياه الترعة التى كانت هناك ، أى أن ذلك النسيج غطى عرض الطريق . فلما وصل القروى حذره « تحوتى نخت » من أن تدوس حميره على النسيج فصدع القروى للأمر وأجابه سمعا وطاعة . وساق حميره على حافة الجسر من ناحية الحقل وعند ذلك نهره سائلا عما إذا كان يريد أن يجعل من حقل شعيره طريقا لحميره فأجابه القروى بأنه لا يقصد سوءا فالطريق مرتفع وقد غطاه بالقماش ، ولم يعد هناك مكان يسير فيه إلا حقل الشعير . وفى أثناء تلك المناقشة مال أحد الحمير فأكل شيئا من الحقل وعند ذلك قال « تحوتى نخت » إنه سيستولى على ذلك الحمار ثمنا لما أكله ، فصرخ القروى سائلاً إذا كان من العدل أن يأخذ حماره مقابل قبضة من الشعير ملأ بها فمه ، وصاح قائلا « أننى أعرف صاحب هذه الضيعة ، إنها ملك رئيس مديرى القصر رنسى بن مرو ، أنه هو الذى يقف فى وجه اللصوص فى أنحاء البلاد فهل أسرق فى ضيعته ؟ » وعند ذلك نهره « تحوتى نخت » وأخذ غصنا من شجرة وأوسعه ضربا وأخذ كل حميره وساقها إلى الضيعة .

وبكى القروى من آلامه بكاء مراً فلم يتركه « تحوتى نخت » وشأنه بل نهره وأمره بالسكون لأنه على مقربة من معبد « رب السكون » (أى أوزوريس) فصاح القروى : « إنك ضربتنى وسرقت متاعى وتأبى إلا أن تأخذ أيضا الشكوى من فمى !! يا رب السكون ، رد إلى بضاعتى حتى لا أصيح .. » . وظل القروى المسكين عشرة أيام كاملة يستسمح ويستجدى ظالمه دون جدوى ، فلما يئس منه سار فى طريقه ليشكو إلى رنسى نفسه فى العاصمة . ورآه عندما كان يهم بالخروج من باب بيته لينزل إلى سفينة ليعقد فيها جلسة للمحكمة فقال له « هل لى أن أرفع إليك أمرا ؟ أرجوك أن ترسل لى تابعك الذى تثق فيه حتى يصل إليك عن طريقه ما أريد قوله » فأرسل رنسى إليه تابعه فشرح القروى له القصة بحذافيرها . وعند ذلك رفع رنسى قضية ضد « تحوتى نخت » أمام القضاة الذين كانوا معه . فما كان من القضاة إلا أن قالوا إن

هذا القروى لابد أن يكون أحد فلاحى تحوتى نخت الذين تركوا العمل عنده وذهب ليعمل عند الآخرين ، وأن ما حدث له هو ما يستحقه أى قروى يفعل ما فعله ، وقالوا ، أعلى مثل ذلك يعاقب تحوتى نخت بسبب كمية تافهة من النطرون شىء قليل من الملح ؟ اصدر إليه أمرك بأن يعوضه عنها وسيفعل ذلك ، ولكن رنسى لزم الصمت فلم يرد على القضاة ولم يرد على القروى .

وجاء القروى مرة ثانية ليشكو وصاح مخاطبا رنسى ومذكرا لهم باليوم الآخر ويطلب منه أن يقيم العدل حتى ينال العدل بعد موته ، ويقول له ، إنك أبو اليتيم ، وزوج الأرملة ، وزوج المرأة المهجورة ، ودثار من لا أم له ، . وذهب رنسى إلى الملك نبكاورع (آخر ملوك الأسرة العاشرة وكان يسمى أختوى أيضا) وقال له ، سيدى : لقد وجدت واحدا من هؤلاء القرويين ، فصيحا بحق ، لقد تعدى عليه أحد رجالى وسرق ما معه وجاء إلى يشكو من ذلك ، فنصحه الملك بأن يجعل ذلك القروى يطيل إقامته ليستمر فى الشكوى ، وأمره أن يكتب كل ما يقوله وفى الوقت ذاته يعنى بأمر زوجته وأطفاله فيرسل إليهم ما عساه يكفى لقوتهم ، وأن يعنى أيضا بأمر القروى نفسه فيرسل إليه الطعام دون أن يعرف أنه هو الذى أمر بترتيبه له . فرتبوا له فى كل يوم أربعة أرغفة من الخبز وإناء من الجعة . وجاء القروى مرة أخرى وكان فى كل مرة يلقى شكواه بأسلوب فصيح يملؤه بالاستعارات والتشبيهات حتى بلغت شكاواه تسعا ، أبدع فيها كاتب القصة ، وكلها تدور حول العدل ومسئولية الحاكم عن الدفاع عن المظلوم ومساوىء الطمع والتكبر على الناس ، وفى آخر شكواه التاسعة يئس القروى وصمم على قتل نفسه فختمها بقوله ، أنظر ! إنى أشكو إليك ولكنك لم تسمع فهل تريد منى أن أذهب وأشكوك إلى (إله الموتى) أنوبيس ؟ ، وترك القروى مكانه وسار فى طريقه فأرسل رنسى وراءه إثنين فأعاداه . وظن المسكين أنهم سيعاقبونه على ما بدر منه ، فلما وقعت عيناه على رنسى إبتدره قائلا : ، إنى تواق إلى الموت كما يتوق الظمآن عندما يقترب من الماء ، وكما يتوق الرضيع إلى لبن (أمه) ، ولكن رنسى رد عليه قائلا : ، لا تخف أيها القروى ، انظر ! إنك ستقيم معى ، ولكن يأس القروى كان قد بلغ نهايته : ، لن آكل خبزك أو أشرب من جعتك ما حييت ، . ولكن رئيس البيت الملكى قال له ، تعال من هنا حتى تستمع إلى ما قاله من شكاوٍ ، وأمر أن تقرأ له بردية سطرت عليها ، ثم أرسلها رنسى بعد ذلك إلى الملك ، وقال الملك لرئيس بيته أن يتولى هو الحكم فى القضية فأرسل إثنين من الشرطة لإحضار تحوتى نخت ، وأرضى القروى إذ عوضه عن كل ما فقده كما انتقم له ممن ظلمه دون وجه حق فأعطاه كل ما كان يمتلكه تحوتى نخت .

أى أن القضية نفسها إنتهت بما كانت تدعو إليه الشكوى وهو حماية الفقير من الغنى وأن يكون الحاكم سياجا يحمى الضعيف من عسف القوى وألا يعتقد الموظفون أو الذين ينتمون إلى ذوى النفوذ من بين الحكام أنهم يستطيعون أن يظلموا القرويين المساكين دون أن تنالهم يد العدالة .

لقد رأينا الملك أختوى الرابع يوصى إبنه الملك مريكارع أن يتعلم حسن الحديث وإجادة التعبير عن آرائه ، وبعبارة أخرى يمتدح الفصاحة وعدم السكوت عن الظلم ، ونرى فى هذه القصة تطبيقا لذلك المبدأ وهو الإعلاء من شأن الفصاحة وضرورة السعى وراء الحق ، وهى تصور لنا أيضا أمرا آخر ، وهو ظلم صغار الموظفين للفقراء من الناس بينما يعنى كبارهم برد الحق إلى أصحابه متى وصل ذلك إلى سمعهم ، لأنهم هم المسئولون عن ذلك . ونرى فيها أيضا بوضوح أمر الخوف من عقاب الذى لا تخفى عليه خافية إذ طالما ذكر القروى رئيس البيت الملكى بأنه هو المسئول عن نكبته ، وأنه سيقف يوما أمام الملك ليجيب عن ظلمه له ، لأنه لم يستمع إلى شكواه ولم ينصفه من تابعه .

لم نعرف لمثل هذه الشكوى وجودا فى الدولة القديمة ، وهى مثل غيرها من آداب ذلك العصر نتيجة لما نشأ فى مصر من وعى إجتماعى بعد تلك الثورة التى قام بها الشعب فى أعقاب الأسرة السادسة ، ولقى هذا النوع من الأدب وتلك الآراء قبولا من الناس فى الدولة الوسطى وخاصة فى أوائل أيام الأسرة الثانية عشرة ، ولكن ما جاءت الدولة الحديثة حتى تغيرت الأمور وأصبح للمصريين مثل عليا مختلفة .

أهم آثار عصر الفترة الأولى :

أهم آثار ذلك العصر هى دون ريب تلك البرديات الأدبية التى نرى فيها صدى لما طرأ على الحياة الإجتماعية من تغيير ، وما ظهر من آراء جديدة مهمة . ويليها فى الأهمية المراسيم التى كان يصدرها الملوك ثم ما وصل إلى أيدينا بعد ذلك من آثار سواء من أطلال أهرام أو مقابر ذلك العصر ، أو ما وصل إلى أيدى العلماء من أشياء أخرى .

ولم يعثر على أى أثر لمقابر ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة فى إهناسيا حتى الآن ، ولكن عثر على ما يكفى للترجيح بأن منف ظلت العاصمة الإدارية للبلاد ولم تكن إهناسيا غير مقر الملك كما أن ملوكها ورجال بلاطهم إستمروا على التقليد القديم ، وكان الكثيرون منهم يدفنون فى جبانة منف وعثر على آثار لبعضهم حول هرم تيتى فى الجزء الشمالى من الجبانة وحول هرم ببى الثانى فى سقارة الجنوبية .

وعثر أيضا على الكثير من النقوش التى بقيت من جدران بعض مقابر ذلك العصر فى سقارة كما عثر أيضا على لوحات جنازية لبعض الأفراد كانت فى مقابرهم التى شيدت هياكلها من الطوب اللبن أما القبر فكان تحت الهيكل وغالبا ما يكون على شكل حجرة صغيرة (شكل رقم ١٠ وشكل رقم ١١) من الحجر – وذلك للقادرين من الأغنياء – تلون جدرانها ويوضع فيها صاحب القبر داخل تابوت من الخشب محلاة جوانبه بالكتابة أو الرسوم ، وقد عثر على مئات من هذه التوابيت فى جميع أرجاء مصر وبخاصة فى مصر الوسطى وهى من أهم مصادرنا لدراسة ذلك العصر سواء من الناحية الدينية أو من الناحية الاجتماعية ، وذلك لرسم كثير من الأدوات على جوانبها بدلا من وضعها فى القبر(١) . ومن بين العادات الجنازية فى تلك الفترة الإكثار من وضع نماذج خشبية للخدم أو الجنود أو العمال وهم يؤدون أعمالهم المختلفة.

واستمر أمراء الأقاليم يدفنون على مقربة من بلادهم ، ولهذا نجد كثيرا من مقابر ذلك العصر منحوتة فى الصخر فى مصر الوسطى والصعيد ، أما الفقراء فكانوا يدفنون فى السفح تحت مقابر الحكام . وتقتصر المقابر غالبا على حجرة صغيرة تقطع فى الطبقة المتماسكة من الأرض أو تبطن بأحجار أو طوب ، ويوضع فى وسطها تابوت أو أكثر من الخشب وفوقه أو بجواره بعض النماذج الخشبية ، وأهم مقابر الأقاليم نجدها بين مقابر زاوية الأموات وبنى حسن والبرشا وأسيوط ودير الجبراوى والهجارسة وأخميم ودندرة والمعلا وأسوان .

ومن بين الأشياء المهمة التى تقرن بذلك العصر ظهور الجعارين وكان الجزء العلوى منها غير مقتصر على رسم الجعر فقط بل كان أيضا على هيئة حيوانات مختلفة ويكتب فى أسفله على الجزء المسطح ما يشاؤون أو يكتفون برسم هندسى أو زخرفى .

وإذا درسنا لوحات القبور التى يرجع تاريخها إلى هذا العصر نرى فيها أيضا أثر التطور الإجتماعى الذى رأيناه جلياً فى البرديات . فلم يعد الأفراد يقتصرون على ذكر الملك والآلهة وتقديم القرابين لهم بل نراهم يفخرون بأنفسهم وبأعمالهم ، ويتحدث كل منهم عن نفسه بأنه كان محبوباً من أهله ومن غيرهم من الناس وأنه كان بعيدا عن الدنايا ، عونا للفقير محبا للرزق الحلال مجدا فى عمله حائزاً على رضاء الناس .

لم تقتصر تلك الصيغ على لوحات القبور التى عثر عليها فى جبانة منف بل كانت شائعة جداً فى الأقاليم ، وقد عثر على مئات منها فى جبانات الصعيد ، وعلى أكثرها صيغ تمجد قيمة الفرد وفضائله الشخصية التى ساعدته على التقدم فى مضمار الحياة .

ويجب ألا يغيب عن ذهننا ما أشرنا إليه من قبل وهو أنه أثناء حكم ملوك الأسرة العاشرة فى إهناسيا كانت هناك بيوت قوية فى مصر الوسطى وبخاصة فى أسيوط وفى جرجا وفى طيبة ، وأن رؤساء تلك البيوت خلفوا وراءهم آثاراً ، وسنتحدث عنها فيما بعد عندما نصل إلى الفصل القادم ؛ لأن حكام طيبة هم أصل الأسرة الحادية عشرة التى تبدأ بها الدولة الوسطى .

obeikandl.com